سلسلة محاضرات تأبينية في ذكرى زكي بدوي

ماضٍ مشترك لمستقبل مشترك:

المسلمون الأوروبيون وكيف يصنع التاريخ

مارتن روز

ترجمة منور السيد

مراجعة الدكتور أحمد بسام ساعي

تكريماً لحياة وأعمال الشيخ زكي بدوي الحاصل على الوسامين الملكيين البريطانيين OBE و KBE وتقديراً لمساهماته الوطنية في نصرة الدور الحيوي للمعتقدات الدينية والقيم في حياة الأمة؛ تنظم جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في بريطانيا (AMSS) كل عام محاضرة سنوية تأبينية للشيخ زكي بدوي. وقد أُهديت سلسلة هذه المحاضرات تكريما لرؤية الدكتور بدوي من أجل تعزيز التعددية والحوار بين الأديان والتفاهم بين الثقافات والترابط الاجتماعي.

"من يسيطر على الماضي يسيطر على الحاضر". يناقش مارتن روز في المحاضرة التأبينية الثالثة هذه العبارة قائلاً بأن التاريخ غالباً ما يكون سلاحاً قوياً عندما يكون استكشافاً للماضي مجرداً من العواطف. ومن الممكن، في أسوأ أشكاله، أن يعزز التقوقع ويعيق التفاهم، ولكنه في الوقت نفسه يمكن أن يقدم حلولاً لأسئلة صعبة حول الهوية والانتماء في أوروبا اليوم.

ورداً على النظرة الغائية التي ينظر بها المسلمون والأوروبيون التقليديون كل إلى تاريخه، وهي نظرة تنبع من ثقافاتهم المختلفة، يطالب مارتن روز باستخدام وجهة نظر عميقة ومنفتحة في كتابة تاريخ متعدد الثقافات يبحث بشكل أكثر عمقاً في دور الشرق المسلم كمساهم في الفكر الأوروبي الحديث، ويعترف في الوقت ذاته بالإرث المشترك والإبداع الملموس للتاريخ الإمبريالي لأوروبا اليوم.

يعمل مارتن روز مديراً للمجلس الثقافي البريطاني في كندا منذ عام ٢٠٠٦ بالإضافة إلى كونه مديراً لمشروع المجلس الثقافي البريطاني "قارتنا الأوروبية المشتركة". وقد حصل على شهادتي الماجستير في التاريخ والماجستير في دراسات الشرق الأوسط من جامعة أوكسفورد. وكان قد عمل سابقاً في مجال النشر الأكاديمي والمصارف الدولية، فجال العالم وعاش في الشرق الأوسط وأفريقيا.

التحق مارتن روز بالمجلس الثقافي البريطاني عام ١٩٨٨ وخدم في بغداد وروما وبروكسل وأوتاوا، وأسس وأدار للفترة ٢٠٠٢-٢٠٠٦ دائرة "كاونتر بوينت" التي تعتبر مركز العصف الفكري في المجلس الثقافي البريطاني. ويمكن الاتصال به على بريده الإلكتروني:

martin.rose@britishcouncil.org

قال الله تعالى في قرآنه الحكيم :

"إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسِهم في سبيل الله والذين آوَوا ونصروا أولئك بعضُهم أولياءُ بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من وَلايتهم من شيءٍ حتى يهاجروا، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصرُ إلا على قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ والله بما تعملون بصير. والذين كفروا بعضُهم أولياءُ بعضٍ، إلاّ تفعلوه تكنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ كبير. والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آوَوا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريم. والذين آمنوا من بعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولوا الأرحام بعضُهم أولى ببعضٍ في كتابِ الله إنّ اللهَ بكلّ شيءٍ عليم."

(سورة الأنفال: ٧٢-٧٥)

مقدمة

لقد جاء رد فعل العلماء المسلمين وغير المسلمين والمفكرين والقادة الدينيين على نظرية صراع الحضارات سريعاً وملفتاً للنظر على المستويين النظري والعملي. وساعدت مبادرتا "تحالف الحضارات" (Alliance of Civilisations) و"كلمة سواء" (Common Word)، بالإضافة إلى عدة مبادرات أخرى، على تطوير عدد كبير من المشاريع واللقاءات، ليس فقط للحوار ضمن العقيدة الواحدة والثقافة الواحدة، بل للتواصل الفعال بين أناس من معتقدات وثقافات ومجتمعات مختلفة، ليعملوا معاً بأسلوب جديد، وعلى نطاق لم يعرف له مثيل في تاريخ الإنسانية من قبل. ولكن ما تزال هناك حاجة كبيرة للمزيد من العمل الدؤوب للوصول لتفاهم وتعايش سلمي أفضل.

وقد احتفى المجلس الثقافي البريطاني مؤخراً بعمله مع الجالية الإسلامية ومع جمعية علماء الاجتماع المسلمين في بريطانيا. وفي عام ٢٠٠٦ أصدرت جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في بريطانيا بالاشتراك مع المجلس الثقافي البريطاني كتاب "المسلمون البريطانيون: دليل إعلامي"، وهو أول دليل من نوعه يُنشر في الغرب ويصف المجتمعات المسلمة في بريطانيا، تاريخها وحاضرها وتطلعاتها المستقبلية. وكان النجاح الذي حققه هذا الدليل، وقد حظي بردّة فعل إيجابية على مختلف الأصعدة في بريطانيا، واستلهمته مبادرات مشابهة في دول أوروبية أخرى، أحد الدوافع خلف مشروع "قارتنا الأوروبية المشتركة" وهو مشروع جديد طموح للمجلس الثقافي البريطاني يهدف لإيجاد أرضية مشتركة وبناء قِيمٍ ووجهات نظر وأنماط سلوكية متقاربة مبنية على احترام وثقة متبادلين. كما يهدف هذا المشروع للتوصل إلى فهم مشترك بين جميع الأوروبيين حول مساهمات الإسلام السابقة والحالية في المجتمعات والكيانات الأوروبية. وإذا تمكن مشروع "قارتنا الأوروبية المشتركة" من أن يعكس الأوجه المختلفة لتعدديتنا المتبادلة، وعمل على ضمان مشاركتها، فسوف يكون قد قطع أشواطاً نحو تحقيق حقبة جديدة من الاحترام والتعايش السلمي الذي يتحدى افتراضات القدامى. وعندما منحت جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في بريطانيا هذا المشروع "جائزة بناء الجسور" لعام ٢٠٠٩ أكدت على أهمية خلق مناخ من الاحترام والحوار والأمل والارتباط الحقيقي، بالإضافة إلى مبادرات لإقامة الجسور، وللترويج للقيم الأخلاقية العالمية، ولنظرة شاملة لكوكبنا المشترك.

ونظرا للأهمية الكبرى لمشروع "قارتنا الأوروبية المشتركة" دُعي مارتن روز، المدير السابق لدائرة "كاونتر بوينت" ومدير المشروع الجديد، من قبل جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين في بريطانيا ليلقي المحاضرة الثالثة في ذكرى زكي بدوي، وقد أتى موضوع محاضرته في وقت مناسب جداً.

إن التاريخ شديد الأهمية، ولكن لا يمكن تحقيق هدف التوصل إلى مصالحة على أي مستوى، وخلق تفاهم أفضل يؤدي إلى التعايش السلمي، إلاّ من خلال إعادة حساباتنا وقراءاتنا لتاريخنا وتاريخ الآخرين على حد سواء، وهو أمر ليس بالسهل كما أشار مارتن روز.

وبالرغم من هذه الصعوبات فإن من الممكن أن يسهم التاريخ، إذا دُرّس بشكل جيد ووضع بأسلوب سلس ليصل إلى عامة الشعب، في تحفيز الاهتمام بالثقافات الأخرى، والتواصل معها، والوصول إلى فهم أفضل لتأثير هذه الثقافات في عالمنا ومجتمعنا اليوم. وإذا دُرّس التاريخ بجدية وحكمة، وروى حكايات العديد من الشعوب والمجتمعات، فسوف يؤدي هذا بنا حتماً إلى احترام "الآخر" ووجود قيم مشتركة بين المجتمعات والثقافات.

ويلمّح الكاتب هنا إلى خصائص التاريخ التثقيفية. فكما كان التاريخ المكتوب بشكل سيئ مسؤولا عن العديد من الخرافات التي أدت إلى تأسيس ثقافات ملغومة بالتوتر والجهل والأفكار النمطية والخرافات والرُهاب من الشعوب الأخرى، فإنّ من الممكن للتاريخ المكتوب بشكل جيد أن يمحو العديد من هذه الخرافات والأفكار المغلوطة. وتؤكد هذه الفلسفة الذرائعية (البراغماتية) على المفهومات التثقيفية وليس النقليّة، ليس فقط في التاريخ؛ ولكن في جميع المجالات التي تسعى لإعطاء فكرة عن "الآخر" في عالمنا المعقد.

وتعطي رؤية مارتن روز الثاقبة، في بحثه في العناصر الأساسية لإدراكنا لذاتنا، تبصراً نحن بأمسّ الحاجة إليه في منهجية التاريخ وارتباطه بالواقع. وهذا أمر حيوي، لأن التاريخ أكثر بكثير من مجرد سرد بسيط لأحداث وقعت في الماضي القريب أو البعيد. فما الحاضر إلاّ نتيجة للماضي ومرآة لأخطاء الأفراد وإنجازاتهم السابقة. وفي وضعه المثالي يجب أن يساعد التاريخ البشر على تصحيح الأخطاء التي ارتكبوها سابقاً، ويمدهم بالإلهام والقوة من خلال أفضل إنجازاتهم السابقة.

الدكتور أنس الشيخ علي وشيراز خان
تموز/يوليو ٢٠٠٩

ماضٍ مشترك لمستقبل مشترك

المسلمون الأوروبيون وكيف يصنع التاريخ

التقيت بالشيخ زكي بدوي منذ ٦ سنوات في الكلية الإسلامية، وكنت قد عينت مديراً لدائرة "كاونتر بوينت" في المركز الثقافي البريطاني، وبدا لي حينها أن إحدى أولوياتنا يجب أن تكون: كيف يمكن للمجلس الثقافي البريطاني أن يرتبط بالمسلمين البريطانيين ويمثّلهم ويعمل معهم. لذلك ذهبت مع زميل لي لرؤية الدكتور زكي في منطقة إيلينغ. وكان من الأفكار التي ناقشناها خلال الغداء فكرة إصدار دليل إعلامي حول المسلمين البريطانيين. وقد وجد الدكتور زكي أن الفكرة واعدة، وعرّفني على صديق وزميل له هو الدكتور أنس الشيخ علي لنعمل معاً على هذا المشروع . ووُضع الدليل وتم نشره في شهر أيار/مايو عام ٢٠٠٦ تحت عنوان *مسلمو بريطانيا: دليل إعلامي*[١]، وكان ذلك للأسف بعد بضعة أشهر من وفاة الدكتور زكي. وقد حقق الدليل حسب اعتقادي نجاحا باهراً. وكان ما رافق عمليات وضع الكتيّب في نظري ومراجعته وتدقيقه ونشره لا يقلّ أهميّةً عن الدليل نفسه. فتنامي الفهم والثقة الذي مثله الدليل كان مهماً جداً بالنسبة لي، تماماً كأهمية الصداقات التي كونتها مع مؤلفه إحسان مسعود وشريكي في نشر الكتاب الدكتور أنس الشيخ علي. ورغم أن الدكتور زكي لم يعش ليرى الدليل فإنه قد أطلق عملية تعاون واحترام ومحبة أعتقد بأنه كان أقدر مني على التنبؤ بها، وأنا مدين له بهذا.

كما كان الدكتور زكي وراء صلتي بجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين، والتي تطورت خلال السنوات الماضية لتصبح علاقة يسودها الاحترام والتقديرالمتبادل. ويشرفني كثيراً أن يُطلب مني إلقاء هذه المحاضرة للجمعية في ذكرى الدكتور زكي. ولا بد أن أشعر بالرهبة حين يأتي حديثي بعد عالمين لاهوتيين بارزين كالدكتور راوان وليامز والدكتور مصطفى سيريج، وإن كنت سأتكلم اليوم عن العلاقات الثقافية وعن التاريخ وليس عن اللاهوت. وأعتقد أن التزامي بسد الفجوة التي تفصل أحياناً بين المسلمين والأوروبيين سيربطني بشكل كاف باهتمامات الدكتور زكي، وأرجو أن يغتفر لي أي قصور.

ما زلت أذكر وأنا صبيّ أنّه وقعت عيناي لأول مرة على خارطة كبيرة في *أطلس التايمز لتاريخ العالم* تظهر فتوحات الإسلام ولكن من زاوية حجازية. فقد امتد فيها حزام أخضر عظيم للمناطق المفتوحة، انطلاقاً من مكة، عبر سطح العالم الحادّ التضاريس، إلى نجد ومصر والعراق، وقد بدت فيها أراضيَ واسعة جداً، ثم المغرب وبلاد الفرس والروم، وقد بدت أصغر بقليل، والأندلس ومنطقة ما وراء النهر، وقد بدت أصغر من سابقتها. ووراء دار الإسلام، البهية الاخضرار، كانت تقبع أوروبا: كتلةٌ باهتة اللون ضيقةٌ ذات حدود متعرجة تتلاشى عند حدود الكرة الأرضية.

نحن معتادون على رؤية العالم من منظار "ميركاتور" من خلال حله الرائع للمشكلة الهندسية لتمثيل سطح الكرة الأرضية على قطعة مسطحة من الورق. ولكن، كالكثير من الأمور التي تبدو موضوعية، كان لتمثيل "مركاتور" مؤثرات ذاتية غير مقصودة. فنظراً لتضاريس الكرة الأرضية تبدو أوروبا أكبر بكثير مما هي على حقيقتها بالمقارنة مع الدول الأقرب منها إلى خط الاستواء. وهذا ينطبق على كثير من أدوات القياس، الحيادية في الظاهر، تلك التي نستخدمها لوصف العالم، سواء أكانت هذه المقاييس نظام التأريخ الذي يجعل من ميلاد السيد المسيح نقطة البداية، أو خط الزوال الذي يقسم العالم إلى شرق غرينتش أو غربها، أو الأقدام والأمتار التي تُستخدم في القياس في أنحاء العالم، أو العبارات اللاتينية ثنائية التسمية التي تصف النباتات والحيوانات الإقليمية لكل قارّةٍ من قارّات العالم.

لقد علمتني هذه الخارطة، المخالفة لما هو بدهي، أمراً أساسياً عادياً جداً ولكنه غاية في الأهمية، وهو أن العالم يبدو مختلفاً جداً حسب النقطة التي تقف عليها. وقد يبدو هذا بالمعنى الحرفي واضحاً وحقيقة بدهية، ولكنّ مضمونه المجازي الأعمق يأتي كمفاجأة للعديد من الغربيين، تماماً كما كانت خارطة أطلس التايمز مفاجأة بالنسبة لي. ولا تقع هذه المفاجأة بنفس الحدة على الناس في باقي أصقاع العالم الذين غالباً ما يبدو لهم مركاتور والحقبة المسيحية وخط زوال غرينتش أجزاء من خدعة شبه مفهومة: مألوفة ولكنها غريبة في الآن ذاته.

وتبدو عبارة كهذه مثيرةً للدهشة عند من يملكون القوة والسلطة، لأنها تخالف بذور القوة: هؤلاء الذين يأتون من ثقافات مسيطرة وقوية؛ يرون ثقافاتهم على أنها هي القاعدة، وموقفهم على أنه موضوعي ومعتدل، وعقلانيتهم على أنها واضحة، ودوافعهم على أنها نقية وغير متحيزة. لذلك فمن الصعب بالنسبة لهم أن يفهموا كيف يمكن لما يرونه حقاً لا جدال فيه أن يراه الآخرون انتهاكاً.

لم تكن خارطة التايمز مخالفة لما هو بدهي بالنسبة لي لأنني فقط نشأت في انكلترا في المدرسة القديمة "للأطلس الجغرافي" الذي نشر في لندن وطلي باللون الأحمر، بل أكثر من ذلك لأن أطلس مدرستي كان يمثل عالماً فكرياً كاملاً عشت فيه دون أي تفكير. قد تبدو هذه الخارطة مفهومة لصبي صغير من لاهور أو دمشق أو الدار البيضاء، ولكن ربما لا تكون مفهومة لهم أيضاً، وإلى حدٍّ كبير، لأن الكون الذهني للحداثة الغربية أصبح بمثابة قالب يصعب (على العالم) الهروب منه .

وتحيط بهذه الظاهرة براءة غربية وقمعية. فمن المؤكد أن الإمبراطوريات تتعمد أحياناً إعادة ترتيب الأثاث الفكري للحياة، كما فعل اليعقوبيون عام ١٧٩٠ عندما استبدلوا التقويم القديم بغيره، وعندما أدرجوا القياسات المترية ليُظهروا انعتاقهم من النظام القديم، أو كما فعل الكمبوديون بتغييرهم، غير المشهور، لنقطة بداية التاريخ.

ونجد أن معظم الإمبراطوريات تفرض مصطلحاتها على الأراضي والشعوب التي تقهرها، ليس فقط لإعادة ترتيب الطريقة التي تفكر بها الشعوب الخاضعة لهم بشكل مبرمج، ولكن لأن طرق تفكير المحتلين تمنحهم ذلك الحقّ بشكل بدهي، وهي تبدو لهم عملية وأفضل من الأفكار الموجودة سابقاً في البلدان التي غزوها. وهذا ينطبق أيضاً على الجيوش العربية التي قهرت إمبراطورية القرن السابع العظيمة، حيث فرضوا لغتهم وعقيدتهم، وتأريخهم الهجري، وقبلتهم مكة، وإيمانهم القوي بالقدر الذي يرسمه لهم الله. كل هذه كانت ظواهر ثقافة عظيمة فرضت مبادئها على الثقافات الأقدم التي سيطرت عليها.

إنّ ما أودّ التأكيد عليه هنا هو العجرفة اللامبالية التي تفرض بها جميع الثقافات الإمبريالية ادعاءاتها ثم تنسى أنها فعلت ذلك. إنهم يفرضون ادعاءاتهم على أبناء زمنهم، ولكنهم يتركون بصمات عميقة بعد فناء إمبراطورياتهم بزمن طويل. فنحن ما زلنا نقيس الدائرة بـ ٣٦٠ درجة، والساعة بستين دقيقة، ونعدّ البيض بمجموعات من ٩٠ بيضة، من غير أن ندري أن جذورهذا كله ترجع لبابل القديمة. ولقد بقي إمبراطور روسيا يدعى "قيصر" حتى بعد رحيل يوليوس قيصر بما يقارب الألفي عام، واستمرّ السلاطين العثمانيون يوقعون وثائقهم بنفس لون الحبر الذي استخدمه الأباطرة البيزنطيون قبلهم، وما زال العالم اليوم يرى ماضيه وحاضره من خلال عدسات مغروسة في عواصم الحضارة الإمبريالية للغرب الحديث.

ولكن هناك أيضاً عنصر أكثر وعياً في السيطرة على التاريخ، وهو أقل براءة مما سبق ذكره. إنّ للعديد، بل ربما لغالبية الحوارات عبر الثقافات (أي أهم الحوارات في يومنا هذا)، جذورها الراسخة في الماضي. وما التاريخ إلا أرض معركة، وهناك سبب جوهري لذلك. فقد صدق جورج أورويل (George Orwell) في مقولته الشهيرة "من يسيطر على الحاضر يسيطر على المستقبل ومن يسيطر على الماضي يسيطر على الحاضر" . فطريقة فهمنا للماضي، والقصص التي نرويها لأنفسنا حول أصولنا وقوميتنا وإيماننا، تفرض بيد من حديد أسلوب تفسيرنا للحاضر وكيف نخطط للمستقبل. وتحدّ هذه القصص، إذا سمحنا لها بذلك، من مخيّلتنا، ومن مجال التغيير، لأنها ترسم حدوداً يصعب على الأغلب اجتيازها. فغالباً ما تكون كتابة التاريخ وسرده أداةً لتحديد أسس النقاشات في الحاضر والمستقبل. وأسئلة مثل: من يمسك بهذه الأداة؟ وكيف يستخدمها؟ تبقى أسئلة سياسية وتأريخية في آن واحد.

وإذا كان لدينا أي شك في ذلك فما علينا إلا أن نرجع للجدل العنيف الذي قام حول الفترة التمهيدية للدستور الأوروبي عام ٢٠٠٣ حين قاتل العديد من السياسيين المسيحيين ليضمّنوه إشارةً للجذور المسيحية لأوروبا، وكيف أنّ هذه القضية ما زالت تطفو على طاولة الحوار. ويصف حزب الشعب الأوروبي نفسه على أنه "العائلة السياسية لليمين المركزي الذي تمتد جذوره عميقة في تاريخ حضارة القارة الأوروبية"، ويعلن في بيانه لخوض الانتخابات الأوروبية عام ٢٠٠٩ أن "مؤسسي أوروبا هم من الديموقراطيين المسيحيين" (وأفترض هنا أن المقصود هو شومان Schumann وليس شارلمان Charlemagne).* وأن "إنجازاتهم بنيت على اعتقادات راسخة في الحضارة اليهودية-المسيحية وعصر التنوير".

*روبير شومان (١٨٨٦- ١٩٦٣) رئيس وزراء فرنسا ١٩٤٧ وعرّاب الوحدة الاقتصاديّة الأوروبية، وشارلمان الكبير (٧٤٢-٨١٤) إمبراطور أوروبا وعاصمته "آخن" وبذل جهوداً كبيرةً لنشر المسيحية في العالم المراجع.

لماذا يعتبر هذا النقاش مهماً؟ من الواضح دون أدنى شك أن لأوروبا جذوراً مسيحية قوية جداً، وسيكون من السذاجة بمكان إنكار هذه الحقيقة. ولكنّ لأوروبا، بالإضافة إلى ذلك، جذوراً قوية أخرى، وتجاهل هذه الجذور وتصغيرها، بهدف نفي كل ما هو خارج عن أعراف اليهودية – المسيحية، لا يخدم السعي وراء حقائق تاريخية علمية وغير متحيزة: حقائق عصرنا هذا، والقضايا السياسية التي تشغل السياسيين، كاحتمال دخول تركيا إلى الاتحاد الأوروبي مثلاً، ووضع الأقليات المسلمة في دول الاتحاد الأوروبي، والاندفاع الدموي للإرهاب من قبل بعض من يسمون أنفسهم الجماعات الإسلامية، والتعليقات الحادة التي يطلقها المعلقون حول القضايا الأمنية، وخاصة ممن يحسبون على اليمين الأمريكي، بوجود "طابور عربي خامس في أوروبا"."

إن إقحام المسيحية في صميم حوار تاريخي مزيف ما هو إلا محاولة لمنع فهم أوسع لماضينا المشترك، والذي يمكن من خلاله صياغة أفكارنا حول المستقبل بطريقة تؤدي إلى فهم أوسع وأعمق. إن المسألة هنا هي مسألة قوة لا مسألة حقيقة.

أنا لا أمتهن التاريخ فمهنتي هي في مجال العلاقات الثقافية، وينحصر اهتمامي في التأثير المتبادل بين التاريخ والسياسة والسلوك في يومنا هذا، وكيف تؤثر رؤيتنا لتاريخنا، أو القراءات المختلفة لتاريخنا، سلباً أو إيجاباً، على العلاقات عبر الثقافات المختلفة. وأودّ بشكل خاص أن أركز اهتمامي هذا على القصص التي

يسردها المسلمون في أوروبا عن أنفسهم، والقصص التي تُروى عنهم. فهذه القصص والحكايا التي نؤلفها، والتي تشرح لنا الكثير عن أنفسنا، هي في غاية الأهمية. ومبعث خوفي في هذه اللحظة أنّ كلّ فريقٍ يروي قصصاً مختلفة جداً ومتباينة، وهي تترك تأثيراتٍ سلبيّة، بأن تباعد بين الأوروبيين المنحدرين من ثقافات ومعتقدات مختلفة. إننا أحياناً نعرف ما نفعل، وأحياناً أخرى نجهل ما نفعل.

لقد وصلت إلى بغداد منذ أكثر من عشرين سنة مضت في أول منصب لي في المجلس الثقافي البريطاني. وقال لي أحد الدبلوماسيين محاولاً المساعدة "ستندهش عندما تحضر حفلات العشاء العراقية، فخلال ربع الساعة الأولى من كل عشاء لا بدّ أن يذكر أحدهم وعد بلفور" . وقد صدق الدبلوماسي القول، وكان هذا الموضوع مجال نقاش طويل خلال السنوات التي تلت، فقد كان النقاش في موضوع هذا الحدث، الحاسم في التاريخ الحديث للشرق الأوسط، حيوياً جداً للعراقيين، وعبثياً بالنسبة لدبلوماسي بريطاني.

لماذا؟ لأن الأحجية هي المقياس الزمني. فقبل ٩٢ عاماً، عندما وقّع بلفور رسالته لروتشيلد، كان جدي شاباً صغيراً ولم يكن والدي قد ولد بعد. وإذن فإنّ وعد بلفور بالنسبة لمعظم البريطانيين هو حدث من التاريخ، وثيقة من ماضٍ إمبريالي لم نعد نفهمه، ونشعر بأننا لم نعد نمتلكه، وبالتالي لسنا مسؤولين عنه. ولكن هذا الحدث بالنسبة للعراقيين ومعظم العرب وجميع الإسرائيليين جزءٌ لا يتجزأ من الحاضر، فقد كان لوعد بلفور وتبعاته أثر بالغ، إيجابياً أو سلبياً، في حياة أجدادهم وآبائهم وأولادهم. وهناك أمثلة أخرى مشابهة في التاريخ الاستعماري لكل أمة أوروبية، وهو تاريخ نصف منسيّ، تحاول هذه الأمم نسيانه، كاحتلال بلجيكا للكونغو، وفرنسا للجزائر. وما زالت تبعات هذا الاستعمار الزائل تلاحق شعوب الدول المستعمِرة إلى الآن.

قد يكون هذا الإرث من الماضي قد أصبح شبه منسي، ولكنه لا يتلاشى أبداً. ويبدو، كما تبيّنت في بغداد، أن الزمن يمضي بتواتر مختلف في المناطق المختلفة. كتب صامويل بيكيت عن الزمن "هو مزيج فوضوي من الركود والتيارات" وقد كان ركود الزمن جلياً على موائد العشاء العراقية، وقد اجتازته بأشواط التيارات السريعة الآتية من لندن وباريس وواشنطن. وكما أكّد أحد المؤرخين المعاصرين؛ فإن "ما نسميه زمناً ما هو إلا مزيج من الأزمنة تنجلي بسرعات مختلفة في أماكن مختلفة، وتتقاطع وتتواصل بأساليب مختلفة"، ويتابع قائلاً إنه بالنسبة للعديد من المفكرين "لا يمكن أن يكون الزمن تاريخاً تسلسلياً هندسياً لأحداث متتابعة يمكن جمعها في وحدة منطقية. لقد تشكل العالم في دوامة الزمن الدائمة الحركة، والتي أتت كنتيجة للعديد من العوامل المختلفة"[٢].

ويبدو هذا مفيداً بالنسبة لي: فالزمن (أو على الأقل إدراكنا لإيقاعاته وحركته) تحدده الثقافة وتفرضه القوة. إن "العوامل المجتمعة" التي ينوه عنها الكاتب تحدد سرعة واتجاه مرور الزمن، ولكنها لا تتساوى في قدرتها على فرض هذه السرعة على الآخرين في مجال ردود أفعالهم الثقافية والسياسية. فبعضهم إمبراطوريات، وبعضهم الآخر قبائل أو تقاليد دينية أو عرقية. وقد تسيطر حركة زمنية معينة في أية لحظة على دوامة التاريخ، فتنحّي الإيقاعات الزمنية الأخرى للرؤى التاريخية الأقل قوة.

إن هذا يعني بكل بساطة أن الثقافات الأقوى هي من تضع القوانين، وتفرض بشكل كبير ما تعتبره مهما وما تعتبره معاصرا.لقد حدثت تقاطعات وتواصلات على هوامش التيارات الهائلة للامبالاة الإمبريالية، وتابع التدفق الملكي للزمن حركته الهادئة وغير المضطربة. ولكن هذه المسيرة الهادئة تغيرت، وكان هذا التغيير بشكل عام على هوامش الثقافات: لقد عثرت مصادفة أثناء تفكيري بهذه الظاهرة على التعليق التالي الذي أدلى به مقاتل أفغاني لصحفي غربي، وكان يمكن أن يقال في لحظات عدة من القرنين الماضيين: "أنتم تمتلكون ساعات يد ونحن نمتلك الزمن"[٣].

إنّ من السمات الغريبة للزمن ذي السرعتين الفشل في تحقيق تزامن بين المواقف الاجتماعية. فكثيراً ما يقال إن المسلمين في بريطانيا محافظون اجتماعياً، ملمِّحين بذلك إلى أن مواقفهم الاجتماعية لا تتناغم مع المجتمع البريطاني الحديث. وهذا ما يؤكده مسح Gallup/Coexist الاستطلاعي الذي رسم صورة للجالية المسلمة البريطانية على أنها معتدة جداً بهويتها البريطانية (ربما أكثر من المجتمع ككل) ولكنها في الوقت ذاته معارضة بشدة للعلاقات الجنسية بدون زواج والسلوك اللوطي وما إلى ذلك[٤]. ويمكن للمعلقين العلمانيين اليوم أن يصفوا مجموعة المواقف هذه بشكل مستفز بأنها "غير عصرية". ولكني عندما اطلعت على نتائج المسح الاستطلاعي أدركت أن ما أقرأه هو من عدة أوجه صورة نمطية للطبقة الوسطى في إنكلترا أثناء حقبة الخمسينيات من القرن الماضي. فقد كانت مجموعة إجابات المسلمين على الاستبيان ستأتي مريحة جداً لجدي الذي كان رجل دين إنجيلياً، بل كان سيجد نفسه أقرب إليهم من باقي المواطنين البريطانيين الذين دخلوا في مسح مؤسسة كالوب. هنا أيضاً يمر الزمن بسرعات مختلفة. فالمجتمع العلماني المعاصر ترك أسلافه وراءه ويتوقع من العالم أن يحذو حذوه. ويبدو أنه في هذا المجال ومجالات أخرى قد فقد إحساسه بالماضي.

التاريخ هو شيء يمكن للأقوياء أن يتركوه بسهولة أكثر من الضعفاء. إن ماضينا هو غالباً حاضر الشعوب التي كانت سابقاً جزءاً من إمبراطورياتنا، ونحن الآن نتخلى عن ماضينا. إن وعد بلفور وتقسيم الهند وخلع مصدّق وحل الإمبراطورية العثمانية كلها أحداث تناولها المؤرخون، ولكني أشك في أننا نستطيع إقناع تلميذ مدرسة بريطاني واحد من بين مائة أن يعطينا أية معلومات حولها، بينما يعيش الملايين من الناس في مختلف أرجاء العالم مع التبعات المباشرة لهذه الأحداث ويتكلمون عنها بطلاقة وبلا توقّف.

"هذا كلّه تاريخ مضى" عبارة نسمعها غالباً كاستبعاد، وتعني أنه لم يعد للحدث أهمية، ولن نستطيع أن نفعل شيئاً حياله على أية حال. ولكن التاريخ لا يتلاشى بل ينفذ إلى الأعماق. وعن هذا الموضوع كتبت مارغريت ماكميلان أنه "من الحكمة ألاّ ننظر إلى التاريخ على أنه حزمة من أوراق الشجر الميتة، أو كمجموعة من الأعمال الفنية المغطاة بالغبار، أو كبحيرة تكون أحياناً عذبة وأغلب الأحيان كبريتية تقبع تحت الحاضر وتشكل بصمت مؤسساتنا وطرق تفكيرنا وما نحب وما نكره"[٥]. لقد تمكنت المجتمعات الإمبريالية في الماضي بشكل عام من الابتعاد عن تبعات تاريخها، تاركة بحيرة الماضي تزبد بهدوء في الطرف الآخر من الكرة الأرضية. ولكن ما يحدث اليوم هو شيء مختلف: فقد خلقت العولمة، والتواصل الفوري، وحركة الناس الجماعية عبر العالم، مجتمعاً عالمياً يتحد فيه الماضي والحاضر أحدهما مع الآخر. من كان يتصور عام ١٩٤٨، عندما حصلت سيلان على استقلالها، أنه بعد ستين عاماً سيحتل المحتجون التاميليون ساحة البرلمان مطالبين بريطانيا بأن تتحمل المسؤولية عن تبعات هذا الاستقلال على سيريلانكا اليوم؟ أو أن الناجين الكينيين من أسرى الحرب من ثورة الماو ماو في الخمسينيات سيقاضون الحكومة البريطانية مطالبيين بتعويض عن التعذيب الذي تعرضوا له والذي وُثّق أخيراً في دراسات أكاديمية حديثة؟ لقد كان رد الحكومة البريطانية أن "الطلب باطل بالتقادم بسبب الوقت الذي مرّ على حوادث التعذيب هذه"[٦].

لقد غيرت هجرة أعداد كبيرة من الناس من أصقاع الإمبراطوريات الأوروبية إلى أوروبا الوسطى، خلال العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، من تركيب الذاكرة التاريخية. إذ لم نعد نسترجع الأحداث الهامة التي شكلت الهند الحديثة أو إيران أو الجزائر أو أندونيسيا من خلال مذكرات القناصل السابقين وحدها، ومن سجلات الدول، ومن قصاصات مهترئة من الصحف مثل التايمز اللندنية واللوموند الفرنسية ونيثيرلاندز داغبلاد الهولندية، بل نسترجعها من خلال تجارب وذكريات الشعوب التي تعيش في الطرف الآخر من هذه الأحداث والقرارات، مما يجعل النسيان صعباً بالنسبة لنا جميعاً. فالزمن البطيء والزمن السريع يتقاطعان في أوروبا الحديثة: لقد خرجت فرنسا من الجزائر، وهولندة من أندونيسيا، وبريطانيا من الهند، ولكن الجزائر وأندونيسيا والهند أتت إلى أوروبا للعمل واستوطنت فيها بحيث يلحقنا تاريخنا في تيارات معاكسة هائجة.

قد يكون هذا مخيفاً أحياناً، وملهماً في أحيان أخرى، ولكن الكلمة الهامة هنا هي *نحن*. ففي بلد أثرت فيه التجربة الإمبريالية ونتائجها نحن بحاجة إلى تأريخ أكثر شمولية ودقة وانفتاحا وأقل أحادية، وأتمنى أن يعتبر هذا أمرا حتمياً. إن عبارة "أسلافنا الغوليين" والتي أجبر تلاميذ المدارس في المستعمرات الفرنسية في غرب أفريقيا أثناء الاحتلال الفرنسي على إنشادها، سخيفة وإن كانت تنبّئية في آن واحد. فنحن نشترك بتاريخنا شئنا أم أبينا، ولهذا لن نتمكن من منع الآخرين من الدخول من بواباتنا حتى لو أردنا ذلك.

وحالما تغيرت شروط الارتباط في أوروبا، بدا وكأن المعرفة الحميمة والتفاهم الذي كان يربط بين البريطانيين وشعوب إمبراطوريتهم، رغم أنها كانت بشروط غير متوازنة وغالبا شرقية، قد تبخرت، أو على الأقل ضعفت، كما حصل للتجارب المشتركة للوائح الضباط والجنود المتوفين من الأفواج الهندية المنقوشة على بوابة منين في مدينة إيبرو البلجيكية، وعلى شواهد المقابر العسكرية التي تمتد من مدينة كوهيما الهندية إلى منطقة كوت العمارة في العراق.. كما تبخرت وضعفت اللغات والمفردات والمخيلة والمعرفة المشتركة التي طالما عززت الاحترام المتبادل. وقد كتب ضياء الدين ساردار عن هذا التغيير غير المتوقع قائلاً "على الرغم من هذه التوأمة التاريخية؛ كانت بريطانيا، التي رحبت بأناس مثلي، بمثابة محو للذاكرة وطمس للتاريخ وتحد للعقل والمنطق، فبدلاً من أن تبني على العلاقات المتشابكة لتجربة الامبراطورية، والعلاقة الحميمة مع الهند وشعوبها، والتي كانت مترسخة ومنتشرة ً في المجتمع البريطاني، تم، وبشكل متعمد، اعتبار البريطانين من المهاجرين الآسيويين الذين وصلوا في الخمسينيات شعباً جديداً".[٧]

قال إينوك باول (Enoch Powell) مرّةً (وكان أحياناً يتمتع بنفاذ بصيرة كبير): إن الإنكليزي الذي لا يفهم الهند لا يمكن أن يفهم تاريخه. ونحن كأمة وجدنا أنفسنا ننزلق، دون أن نعي ذلك، نحو هذا الجهل بماضينا الإمبريالي، وبالتالي نحو جهلنا لأنفسنا. لقد أصبحت بريطانيا دولة صغيرة، ليس بالمعنى الحرفي أو ما بعد الإمبريالي فحسب، ولكن أيضاً في قدرتها على تفهم العالم. إن أحد الأعراض الغريبة لهذا الجهل تصدمني مرة تلو الأخرى كلما قرأت في النقاشات الصحفية عن اندحار اللغات الحية في المدارس البريطانية، وتصاغ هذه النقاشات على أساس أن الأوردية والبنغالية والفارسية والبنجابية والعربية كلها لغات غير حية إلا حين تدرّس في كلية الدراسات الشرقية والآسيوية في جامعة لندن (SOAS). إن هذا الرفض معبرٌ جداً.

إن التبعات الغريبة لهذا الرفض تبدو، مثلما يمر بعض الناس ببعضهم وهم يصعدون وينزلون السلالم الكهربائية، وكأن بريطانيا القديمة تنسى تاريخها، على حين تتذكر بريطانيا الحديثة تاريخها وتعيد صياغته. ولكنّ ما لم يحدث، ونحن بأمسّ الحاجة إلى حدوثه، هو التعاون على تأسيس ثقافة وتاريخ سياسيّ واجتماعي يعرّفاننا بأنفسنا، ولكننا لم نقترب بعد من تحقيق هذا الهدف.

إن مسلمي بريطانيا في تزايد. وقد شهد الربع الأخير من القرن الماضي تحول "الآسيويين" إلى "مسلمين" والاستعاضة عن الهوية العرقية بالهوية الدينية. إن هذا التحول عملية غريبة تنطلق من إحساس بالذات أبعد ما يكون في الواقع عن الهوية الإسلامية. ففي السبعينيات "كان الشباب الباكستانيون والبنغلاديشيون منفتحين جداًعلى جذورهم وهويتهم" كما قال كنان مالك، لقد "كانوا سعيدين بأن تطلق عليهم تسمية "هنود" دون أن يفكّروا بالاضطرابات وإراقة الدماء التي حصلت خلال انفصال بلادهم عن الهند. ولكنهم، مع قبولهم للقب هنود، لم يخطر لهم أن يسموا أنفسهم مسلمين"[٨]. لقد تغير هذا كلياً خلال العشرين سنة الماضية، إذ انتقلت الكرة إلى الملعب الآخر. فالمسلمون والجالية الإسلامية هم الآن فئات أساسية للأحاديث والكتابات الاجتماعية والسياسية والدينية.

ومن الأسباب الهامة لهذا التحول جاذبية العقيدة نفسها، والأعمال التي أمضى رجال مثل الدكتور زكي حياتهم فيها، هذا بالإضافة لكون هذا التحول جزءاً من عملية صناعة التاريخ: عملية بحث الرجال عن تاريخ يعرِّفهم على أنفسهم، الأمر الذي فشل به التاريخ العلماني القومي، على الأقل حتى الآن: حين رفضت بريطانيا أن تفتح صدرها للمواطنين البريطانيين الجدد؛ في نسخة جديدة من تاريخها القومي تكون أكثر تعاطفاً وعولمة وكرماً.

لقد تركت بريطانيا المهاجرين محرومين اقتصادياً، وأقصتهم عن ماضيهم وعن زمن أمجاد الإمبراطورية وفترة تراجعها. والصورة التي تكونت عن الانسحاب، وانحسار المد، واستقلال المستعمرات ودول الكومونولث التي تركناها تعود الى اهلها تمثل انفصالاً جذرياً. إذ يفترض وجوداً متماسكاً وحصرياً لنا "نحن" البيض يتخيل انسحابا وانعتاقا كاملا من الارتباط الإمبراطوري بكل مسؤولياته وتبعاته. وهذا لا يترك مجالاً كافياً لكتابة تاريخ مشترك، بل يولد فراغاً ذا نتائج سلبية بينما كان من المفروض أن يعكس تجاربنا المشتركة جميعا.

وعلى الرغم من التاريخ المجيد للإمبراطوريات الإسلامية، وجاذبية الإسلام وانتشاره الواسع، فإن جذور خيال معظم المسلمين وتاريخهم الضمني، كما هو الحال بالنسبة للبشر على مر العصور، متأصلة في المكان والثقافة المحلية بنفس الدرجة التي تتواصل بها مع الأمة الإسلامية. فكما وحدت اللغة الشعوب فإنها فرّقتهم أيضاً (كما يشهد من سمع ،على سبيل المثال، الصِبية في مدرسة في شمال غرب الباكستان يتلون سور القرآن باللغة العربية عن ظهر قلب دون أن يفهموا أية كلمة من هذه اللغة. وكما قال كارل إيرنست (Carl Ernst) "لا يمكن أن ينشأ الدين في فراغ، فهو دائماً متداخل مع الأشكال المختلفة للثقافة والتاريخ التي تربطه بمواقع معينة"[٩].

إن التاريخ الذي جُرِّد من قيمته، والذكرى التي سُمح لها بأن تخبو، كان مصدرهما من بلاد السند والبنجاب، ومن ميربور وحيدرآباد، ومن داكا وكامبلبور وسيلهت....وأتت فيما بعد من الدول الجديدة، الباكستان وبنغلاديش، وكذلك من شرق أفريقيا والشرق الأدنى العربي وأماكن أخرى. لقد كان إسلام من هاجروا إلى أوروبا هو دين أوطانهم الأم، سواء كان موطن إقامتهم المدينة أو، وفي أغلب الأحيان، الريف: لقد كان عقيدة تقليدية مريحة، وصلة مع التاريخ والجغرافية، بالإضافة إلى كونه دعوة روحانية.

ولكن نظرة البريطانيين الآسيويين لأنفسهم بدأت تختلف بسبب الضغوط الاجتماعية والهوية الدينية. فقد اكتشفت الأجيال اللاحقة توقعات وافتراضات مختلفة وشعوراً جديداً بعدم الأمان. وألصقت بهم هوية جديدة فرضتها عدة أحداث، كقضية سلمان رشدي، وحروب البوسنة والعراق، وردود الفعل لأحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، وتفجيرات لندن. وفي نفس الوقت بدأت الدعوة لإيمانٍ أكثر شموليةً وتزمتاً؛ بقولبة التصور الديني للعديد من المسلمين اليافعين. وترافقت هذه التغيرات مع تاريخ جديد ليس هو تاريخ الباكستانيين والهنود والبنغلاديشيين والأفارقة الشرقيين المهاجرين إلى حاضرة الإمبراطورية القديمة، بل تاريخ المسلمين ككل.

وقد كانت أسس بناء التاريخ الجديد بمعنى من المعاني قديمة بقدم الإسلام. لقد كتب بينديكت أندرسون عن الحج "إنّ التجاور الجسدي الغريب في مكة للماليزيين والفرس والهنود والبربر والأتراك أمرٌ يصعب فهمه بدون فكرة مجتمعاتهم بشكل أو بآخر. فلا بد أن يسأل البربري نفسه عندما يجتمع مع ماليزي في الكعبة: لماذا يفعل هذا الرجل ما أفعله، ويلفظ نفس الكلمات، رغم أننا لا نستطيع أن نتكلم أحدنا مع الآخر؟ هناك جواب واحد فقط: لأننا مسلمون...."[١٠]. ولكن على مستوى آخر نستطيع أن نرى اليوم أيضاً صناعة تاريخ جديد جداً يتأصل في التضامن مع المسلمين الآخرين عبر العالم، يُعنى بقضاياهم وتطلعاتهم ومعاناتهم. إنه بهذا المعنى تاريخ بدون فحوى تأريخي، حيث ترتبط فيه العواطف مع الشعور بالظلم لتنتج قصصا من الدوافع والشخصيات الغامضة..

ومن السهل أن نتصور (وإن كان تحقيق ذلك أكثر صعوبة) فهماً مشتركاً لتاريخنا الإمبريالي وتاريخنا الوطني والقومي ما بعد الإمبريالي. نستطيع أن نرى فهماً كهذا على أرض الواقع، على سبيل المثال، في الوصف الحديث لمؤرخين بريطانيين وباكستانيين للعصيان الهندي أو لتقسيم الهند. ولكن عندما يتعلق الموضوع بتاريخ المسلمين، كمسلمين، نكون على أرضية مختلفة تماما. إن الإسلام عقيدة عالمية واحتوائية للآخر، وهذا بالتأكيد كما يراه المسلمون أنفسهم، ولكنه أيضاً بطبيعته مجتمع عقائدي يحدده الانتماء والإيمان، ويمكن كتابة تاريخه بشكل حصري أو احتوائي وتؤدي الطريقة التي يكتب بها هذا التاريخ إما إلى الانفتاح أو إلى الانغلاق. والمخاطرة دائماً موجودة عندما يتوقف تاريخ ما أسماه أندرسون "مجتمعاً افتراضياً" يحدده تفاهم مشترك حول الانتماء عن كونه مجرد "تاريخ" لما تعنيه كلمة "نحن"، كما فهم الدكتور زكي ذلك جيدا.

يحتاج كل الناس وجميع المجتمعات لحكاياتهم الخاصة لتخبرهم عن هويتهم ومن أين أتوا. وليست هذه الحكايات أشياء تافهة. إنها تتراكم على مر الزمن كما تترسب الصخور، وهي تمتد باهتة اللون عبر الحدود بين الذاكرة والأسطورة وكلمات الأغاني والشعر الملحمي، بالإضافة للتاريخ الجاف. وتغذو جميع هذه الحكايا والأغاني والتاريخ، التي زرعت بشكل متعمد، تأكيداً على جذور وقومية الأرض. ولا يمكن لأية مجتمعات بشرية أن تعيش بدونها، حتى إن المجتمع في أحد أبعاده عبارة عن مشاركة في هذه الحكايات. وغالباً ما تتشابك الحكايا مع التركيب الثنائي الغريب للعقل البشري لتصبح "حكايانا" و"حكاياهم".

أمّا كون هذا التركيب الثنائي عالمياً، أو هو فقط ظاهرة أوروبية؛ فأمر مثير للجدل. فالعديد من الثقافات غير الغربية تعتبره مسيئاً وتؤكد على عدم الثنائية. ولكن هذه الظاهرة ما زالت قوية في العالم الحديث. لقد كتب الروائي ليونيل شريفر (Lionel Shriver) مؤخراً "سيكون جميلاً لو استطعنا أن ينظر بعضنا لبعض على أننا أسرة إنسانية كبيرة واحدة ومُحبة، ولكننا لا ننظر لأنفسنا وللآخرين بهذه الطريقة. فنحن ننتمي لجماعات، وهذا لن يتغير أبداً، وعندنا إحساس بمن نكون ومن يكونون. وقد يكون من المؤسف حقاً أن تشكل الأجزاء حيزاً من طريقة تفكيرنا ومن طريقة شعورنا"[١١]. الحكايا والتاريخ تخبرنا كيف نعتقد بأننا أصبحنا ما نحن عليه.

ونجد هذا التاريخ الثنائي أوضح ما يكون في الأساطير التي تروى عن أصول الشعوب، والتي شكلت جزءاً كبيرا من التاريخ الأوروبي في القرن التاسع عشر. أيّ بلد انحدر من أية قبيلة بربرية في التاريخ القديم؟ وأي الشعوب كانت تنتمي للأسلاف الرومان وأيها لا ينتمي لهم؟ ومن عاش في مكان ما في التاريخ القديم؟ للأسف لم يُطرح أي من هذه الأسئلة بروح الفضول المنفتح، بل كانت مدفوعة بأجندات سياسية- ثقافية. فقد احتاجت القوميات الإقليمية في ذاك الزمن إلى أسس عقائدية زودتهم بها الكتابات التاريخية. وهناك شيء غريب حول انتماء البلجيكيين إلى أسلافهم الـ (Belgae) والإنكليز إلى الأنغلوساكسون (Anglo-Saxons) والألمان إلى (Teutons) الذين استوطنوا الغابات. الشرق الأوسط أيضاً موبوء بالتاريخ. فتاريخه القديم، وآثار حضاراته التي تصقل باستمرار، وكونها موضع بحث وتحسين، تجعل منه عرضة للحروب والاحتلال وإثارة العداوات، وقد كشف المؤرخون الحديثون العديد من هذه المزاعم. فقد كتب باتريك غيري (Patrick Geary) موضحاً كيف أن تشكل الشعوب الأوروبية في بداية القرون الوسطى لم يكن أمراً بيولوجياً، وأن التسميات العرقية ترتبط بالحكومات لا بالمورثات الجينية، وأن مؤرخي الأجناس البشرية هم في أغلب الأحيان جامعو أساطير[١٢]. وهذا لا ينطبق على أوروبا فقط.

إن عملية بناء الأساطير محطّ الكثير من الأحاديث اليوم رغم أن لغتها الآن هي لغة المواطنة والقيم المشتركة، وهي غالباً ما تمثل محاولة لاحتواء المهاجرين من قارات وثقافات أخرى جديدة بالنسبة للمجتمعات الأوروبية المستقرة والقديمة نسبياً، ولتعريفهم على أعراف وسلوك وأساطير المجتمعات التي انضموا إليها بغاية الاحتواء الاجتماعي. وهذا أمر منطقي إلى حد بعيد ولكنه في بعض الأحيان غير واقعي. هناك بالطبع كمٌ كبيرٌ من المعلومات والتقاليد التي من المفيد اكتسابها، والتي تسمح للحياة اليومية بالاستمرار، تماماً كما تساعدنا على فهم جيراننا الجدد. لقد بذلت خلال تنقلي الوظيفي في أرجاء العالم جهداً كبيراً في محاولة فهم أكثر ما يمكنني فهمه عن المجتمعات المضيفة: بدءاً من زراعة أشجار النخيل، وانتهاء بطريقة طبخ المعكرونة، ومن السياسات اللغوية لدول الأراضي المنخفضة، إلى قوانين لعبة هوكي الجليد، وإن كان هذا لا يجعلني عراقياً أو إيطالياً أو بلجيكياً أو كندياً، بل أتمنى أن يجعلني أنكليزياً ولكن أوفر معرفة وأكثر حكمة.

وهناك نغمة رتيبة مستمرة تتخلل الحوار حول الهوية والمواطنة؛ تهمّش الاختلافات الثقافية ولا تسمح بها. وغالباً ما يعبَّر عن هذه الظاهرة بأنها انتقاد للتعددية الثقافية، وذلك بالاعتقاد بأن الطريقة الوحيدة لأن يصبح "المهاجر" (وكلمة مهاجر هنا هي طريقة مموهة لقول "مسلم") بريطانياً حقيقياً؛ هي بأن يتعلم ما يقابل أطباق بلاده من أطباقنا، وما يقابل ألعابها من ألعابنا.. ومن المؤكد أن تعلم طريقة طهو جديدة ورياضات جديدة ليس أبداً بالأمر السيء، ولكن الاحتواء الثقافي ليس طريقاً باتجاه واحد. لا يكفي أن نصرّ على من هاجروا أو يهاجرون إلى بريطانيا أن يصبحوا بريطانيين، بل يجب أن نسعى جميعاً لفتح فضاء فكري وروحي لحدوث هذه العملية السحرية. يجب أن نعترف بأن على الطرفين، في أية مفاوضات بين الثقافات، أن يقترب أحدهما من الآخر، وهي ظاهرة يسميها اللغويون، عندما يتكلمون عن الطريقة التي تتداخل بها اللهجات خلال الحديث، "بالتوافق". إنّ الإلحاح على الاستسلام الثقافي ليس خياراً في مجتمع ليبيرالي

ديموقراطي. ويرمز لهذا الأمر في مقاطعة كويبيك "بالتوافق المعتدل"، وعلى الرغم من أن معظم المناظرات هناك تركز في الواقع على مسألة: أية درجة من التوافق تعتبر غير منطقية؟ فإنني أجد عبارة "التوافق المعتدل" معبرة بشكل مفيد جداً.

ومع ذلك فإننا نتصرف ونتكلم غالباً كما لو كان الاستسلام الثقافي خياراً. وفي هذا السياق يقدم كتابٌ جديد لصحفي أميركي بعنوان "أفكارٌ حول الثورة في أوروبا"، كان قد أثار اهتماماً كبيراً في الصحافة البريطانية، اقتراحاً بلهجة محافظة موزونة مفاده "أن الهجرة الإسلامية الواسعة النطاق تغير أوروبا بشكل جذري". وتلخص الجملة الأخيرة من هذا الكتاب القول المشؤوم التالي: "عندما تلتقي ثقافة غير مستقرة مطواعة ونسبوية؛ مع أخرى راسخة وواثقة وتدعمها مبادئ متعارف عليها، فغالباً ما تتغير الأولى لتتناسب مع الأخيرة"[١٣].

وتستوقفني هنا أهداف مقولة صراع الحضارات التي انتشرت على نطاق واسع، كقصص وأفلام كينك كونك وكوتزيلا على سبيل المثال. ولكن الثقافات والحضارات ليست وحوشاً بل هي تكتلات بشرية، ومن المفيد أن ننظر بعناية إلى أفرادها. فما يدفع إلى التغيير والمواءمة والأصالة في الثقافات الإنسانية هو التصادم اللانهائي لأجزاء دقيقة وقوى غير مرئية يمكن اعتبارها "حركة براونية إنسانية" مشابهة لحركة الجزيئات في سائل ما.* ورغم وجود بعض المخاطرة فإن عملية الجمع بين تواريخ وثقافات ليست منفصلة، كما نعتقد، والشعوب تتشابك تواريخها وتتداخل بشكل وثيق كما أشار إلى ذلك ضياء الدين ساردار، يمكن أن تكون مفيدة جداً.

****

ولكن قبل أن نجمع الشعوب بعضها مع بعض يجب أن نتوقف قليلاً عند محاولات تفريقها. إذ يتشكّل حالياً نموذجان من تاريخ العالم وكأنهما توأمان شريران؛ كلاهما عقيم فكرياً وفتاك سياسياً، ولكنهما أصبحا إطارين توضيحيين شائعين. وبهدف الإيجاز سأخاطر برسم صورة كاريكاتورية لكل منهما. وقد تكون هذه الطريقة المثلى لفهمهما.

النموذج الأول هو قصة تصادم الحضارات، والمواجهة الحتمية بين العالمين الغربي والإسلامي، وفشل الشرق اجتماعياً وسياسياً وفكرياً، والتعبير عن هذا الفشل بالعدوان على الغرب، وهو القيّم على الحداثة التي يتوق لها الإسلام ويستاء منها في الآن ذاته. وهذا السرد التاريخي يصوّر الإسلام وكأنه دين أحادي، ١,٤ مليار مسلم يفكرون ويتصرفون كشخص واحد مشبعين بكراهية الغرب ومصممين على أن يحطّوا من شأن الحضارة الأوروبية. ويأخذ هذا النموذج التحليل الموالي جداً لبعض الدارسين والمعلقين المعاصرين؛ الذين يستخدمون المحاور السياسية ليغذوه بفهم تعميمي سخيف لبعض الحملات الإرهابية الدموية التي حدثت مؤخراً، ويَفترض أن جميع المسلمين يفكرون بنفس الطريقة، وأن العديد من المسلمين في الغرب يكرهون في قرارة أنفسهم البلدان التي احتضنتهم، وأنهم ضمنياً يشجعون العنف داخل أوروبا وخارجها، وأن المسلمين في أوروبا يمثلون إلى حدّ ما طابوراً خامساً. وحسب هذا السرد فإن المسلمين يقللون من شأن

*الحركة البراونية نسبة الى عالم النبات الاسكتلندي روبرت براون(١٧٧٣- ١٨٥٨) المراجع.

الغرب من خلال نزعتهم للعنف، وفهمهم البدائي لحقوق المرأة، ومعارضتهم لحرية التعبير وغيرها. هذه كلها آراء عبر عنها جون بوكان (John Buchan) في كتابه *Greenmantle* .

أما القصة الثانية (التوأم الشرير الآخر) فتفترض أن الغرب أحادي النزعة ويسيطر عليه خوفه وكراهيته للإسلام، وأن أعماله العسكرية في الدول الإسلامية ما هي إلا حملات صليبية نُفِّذت بشكل مقصود وبدافع حقد على الإسلام متأصل عبر قرون من النزاع والكراهية الدينية (وربما أججته حديثاً كراهية الإلحاد للإيمان). وتخلط هذه القصة كل الدلائل والأحداث والأعمال الوحشية التي يمكن أن تقدم كدلائل لإثبات وجود حملة عالمية مدبّرة ضد الإسلام بشكل خاص، وتفترض أن الأوروبيين والأمريكيين يقودهم بغضهم للمسلمين وخوفهم من الإسلام. وما هذه القصة إلا انعكاس لصورة كتاب *Greenmantle*.

لن أتوقف طويلاً عند هاتين الأسطورتين الجيوبوليتيكيتين عن "نحن" و "هم". فأهمية هاتين القصتين تكمن في مصداقيتهما لا في صحتهما، رغم أنهما لا تخلوان من بعض الأحداث الصحيحة ممزوجة بالخيال والتفكير الرغبي. فقد جُمع هذا المزيج بشكل مقصود لإثبات نتيجة مقررة مسبقاً، وذلك عن طريق تقديم أطُر تفسيرية لأفراد مقتنعين سلفاً بهذه النتيجة. والأسوأ من ذلك أنها تعطي مبررات عفوية لتصرفات على المستوى الفردي تقدم الدليل على هذه الأكاذيب، وما هو أكثر سوءاً أنها تؤمّن أدوات سهلة للتلاعب بالعقول سريعة التأثر.

ولا يكمن الخطر هنا في صحة هذه الروايات، بل في أن نجعلها نحن كذلك عن طريق التكرار المستمرّ الكسول أو الماكر، وكما يقول مثل قديم "كن حذراً في أمنياتك". وتأتي هاتان القصتان متداخلتين، على مبدأ: اشتر اثنتين بثمن واحدة.

****

ولكن هناك أساليب أخرى لسرد التاريخ أقل عداءً وأكثر براءة فشلت أيضاً في الاعتراف بحقيقة أن الحضارة البشرية هي سلسلة عالمية متصلة في يومنا هذا كما كانت لعدة قرون خلت. هكذا كتب التاريخ من قبل مؤرخين مفكرين قولبتهم ثقافاتهم الأم. إنّ هذه القصص هي أيضاً هادفة، ولكن الهدف هو لاشعوري بشكل كبير، وهو انعكاس لحقيقة أن كل تاريخ كتب من داخل ثقافة ما أمضت كثيراً من الوقت والطاقة وهي تُعرِّف نفسها بمقابل "الآخرين".

هذه الحقيقة يجب ألاّ تدهشنا. وما يؤثر بي هنا هو أوجه التشابه بين هذه الحقيقة والذاكرة. فمن المتعارف عليه أننا نلوّن ونحرّف ذكرياتنا للمطابقة والراحة النفسية. وقد ذهب باحث إلى أبعد من ذلك عندما افترض أننا نفعل ذلك لنتمكن من إدارة المستقبل "نحن نتذكر أجزاء من تجاربنا ثم نعيد تركيبها لخلق تفسيرات معقولة لما حدث وإن لم تكن دقيقة بالضرورة. إن مثل هذه التركيبات منطقية إذا كانت إحدى مهام الذاكرة الأساسية هي خلط قصاصات من الماضي بطرق جديدة لعرض صور لمستقبل محتمل"[١٤].

وهكذا تعمل ذاكرتنا الجماعية، فهي تخلط قصاصات من الماضي بطرق جديدة لعرض صور لمستقبل محتمل. وليس هذا بالضرورة بالسلوك غير الشريف، ولكن إذا كنا واضحين في رؤيتنا للمستقبل الذي نريده فمن الممكن أن نخلط الماضي، حتى لو تمّ ذلك لاشعورياً، لنرسم الطريق لذلك المستقبل المنشود.

ويتصف كلا الوصفين، الغربي التقليدي للحضارة الغربية، والإسلامي التقليدي للحضارة الإسلامية، بالغائية: تاريخان معدّلان يسعيان لوصفنا جميعاً حسب شروطهما الخاصة، سواء بالحداثة أو بالتدبير الإلهي. فهل سيتزاوج هذان التاريخان أم سيستمران في عداوتهما أحدهما للآخر؟ يبقى هذا أحد أهم وأصعب الأسئلة في عصرنا هذا.

والإجابة، كما يكون جواب معظم الأسئلة الصعبة: يجوز الوجهان. إن التاريخ القصير للإنسان الحديث، ١٢٠٠٠ عاماً منذ فجر العصر الهولوسيني، وأقصر من ذلك منذ "ثورة" العصر الحجري، وربما ٥٠٠٠ سنة منذ اختراع الكتابة، هو في الغالب تاريخٌ أوروبي-آسيوي مشترك. وما تاريخ الإسلام (١٤٠٠ عام) والمسيحية (٢٠٠٠ عام) إلا ملحقان لتاريخ طويل مشترك يمتد أبعد من ذلك بكثير. ولكننا نركز اهتمامنا على هذا الاختلاف الحديث نسبياً؛ رغم أن الاختلافات الثقافية والدينية هي تلك التي تحدث بين الجيران القريبين وأبناء العم في العائلة الواحدة. هذا ما يسميه فرويد "بنرجسية الاختلافات الصغيرة"، أي توجيه الأحاسيس السلبية لمن يشبهوننا أكثر من غيرهم، والاهتمام بنقاط الاختلاف الصغيرة. وهذا يعيدنا لفكرة تحديد هويتنا بالمقارنة مع الآخرين - فيما لسنا نحن عليه - ضمن الأنماط الثنائية المعروفة: أبيض وأسود، أخضر وبرتقالي، أزرق وأخضر، أحمر وأبيض، أزرق وأحمر، أسود وأخضر... بالإضافة لثنائيات أخرى تلوث التاريخ، كالأحزاب وفرق كرة القدم والمذاهب الدينية والجيوش.

إذاً فقد دُوِّن تاريخ أوروبا بشكلٍ أساسي ليعرض كيف وصلنا إلى ما نحن عليه الآن، ويمثل إعادة صياغة الماضي بشكل منتظم لتبرير وشرح الحاضر. وهذا لا يعني أن التاريخ هو نوع من المؤامرة الشريرة المموهة، بل هو نتاج للعقل البشري. إذ يحتاج البشر لأن يشرحوا أنفسهم لأنفسهم، ويجدون بشكل عام صعوبة في تخيُّل تاريخ لا يؤدي إلى ما هم عليه الآن. إذن من هنا ننتقل بقفزة قصيرة إلى الحتمية. هناك إذن ميلٌ قسريّ لكتابة سردٍ مترابط يأخذنا من "البداية" إلى "الآن" في تسلسل منطقي: سرد يأخذنا خارج عالم المصادفات. إن هذا السرد مألوف جداً بالنسبة لأوروبا الحديثة، لدرجة أننا غالباً ما ننسى أنه عبارة عن قابلية لعرض موقف معين. يدور السرد التاريخي أحياناً كالتالي: أصولنا موجودة في اليونان القديمة، في زمن عبقرية أثينا في القرن الخامس، وقد كانت منبع الفكر الأوروبي. ويقودنا الأثر من خلال روما وأباطرتها، حيث طُعِّم هذا الجذع بدين المسيحية الجديد الذي تمّ تبنيه كدين رسميّ للإمبراطورية، ثم الغزو البربري وسقوط روما. وفي هذه الفترة تغوص الثقافة تحت الأرض لتعود إلى الظهور مع ظهور أولى الأنظمة الحكومية من العصور المظلمة. وقد وصلنا لنقطة الأوج في العصور الوسطى الحديثة وسط مجرَّة من الكاتدرائيات والفن المقدّس والثقة بالنفس. وشهد القرن الثاني عشر نهضة فكرية مبكرة ومبشرة بالنهضة الحقيقية التي حدثت بعد قرنين من الزمن، ثم تفجر الفكر الأوروبي مرة أخرى بفورة من الإبداع

عززتها المعرفة الإغريقية التي أعيد اكتشافها، والتي أدت بشكل متعنت إلى الفردية غير المتدينة لحركة التنوير، وبالتالي إلى ما نسميه بالحداثة التي نقلتها أوروبا إلى العالم في عصر التوسع الإمبريالي، مشيِّدة من خلال التجارة الدؤوب رأس مالٍ كبيراً ما زال يمدها ويساعدها على نشر قيمها وطرق تفكيرها في العالم الثالث الذي يصاب أيضاً بين الحين والآخر بطفرات من الحداثة.

وعلى طول الطريق نجد طريقاً فرعيةً أُدخلت في القصة (وهناك طرق فرعية أخرى، ولكنني سأتكلم عن الطريق الذي يهمنا في هذا المساق). وحتى تصح الحكاية كان لا بد لحكمة الأثينيين، والثقافة الهلينستية التي بنيت عليها، من مرسىً آمنٍ خلال العصور المظلمة في أوروبا، عندما ضعفت قبضة الأوروبيين، وبالتالي قدرتهم على المحافظة على الشعلة متأججة. وكانت الحضارة الإسلامية الحديثة الدؤوب، والمنفتحة فكرياً، هي الملاذ. فقد استوعبت بزخمٍ تلك الترجمات والمترجمين للفلسفة والعلوم الإغريقية التي شكلت عنصراً هاماً في الثقافة الرفيعة المستوى للعصر العباسي في بغداد وممالك الأندلس .

أو: هل كان هذا ما حدث بالفعل؟ إنّ ما يثير الاهتمام هنا هو الرفض الكبير في أوروبا الحديثة، على المستوى الشعبي على الأقل، لقبول فكرة أن العرب المثقفين والفرس والبربر قرأوا واستوعبوا الأدب الإغريقي ثم قاموا بترجمته بأنفسهم، وكأن دورهم كان ببساطة نقله دون تفحصه، كالرسول الذي يخيط رسالة سرية في بطانة عباءته ومن ثم يسلمها مغلقة للمرسل إليه. ويبدو أن مجرد التفكير بأن حكمة الإغريق قد أغنت الثقافة العربية والإسلامية الكلاسيكية، تماما كما أغنت الثقافة الأوروبية، أمرٌ صعبٌ قبوله: فعندما بدأت أوروبا مواجهاتها الواسعة مع الدول والمؤسسات الإسلامية كانت قد تبوأت مكان الصدارة الحصين الذي ما يزال على حاله حتى الآن.

لذلك يجب ألاّ نتفاجأ عندما تناقِش افتتاحيات الصحف الفرنسية والأمريكية ما إذا كانت أول ترجمة لأرسطو قد ظهرت في مدينة "طليطلة" المسلمة، أو أنها ظهرت في جزيرة مونت سينت ميشيل المسيحية في فرنسا[١٥] كما اقترح المؤرخ الفرنسيّ سيلفين غوينهايم (Sylvain Gouguenheim) مؤخراً؟ فهل هذا مؤشر لاهتمام شعبي متزايد بالتاريخ الفكري للعصور الوسطى؟ للأسف ليست هذه هي الحقيقة، بل هي مجرد محاولة من قبل الكتاب والصحفيين للحط من قيمة إسهام العرب في نهضة القرن الثاني عشر، وبالتالي للتقليل من شأن إسهامهم في التاريخ الأوروبي والعصر الحديث. وكتاب غوينهايم هذا يترجم حالياً إلى الإنكليزية، وسوف يؤدي ولا بد إلى جولة أخرى من التقليل من شأن تاريخ المسلمين والثقافة الإسلامية. وعندما نلقي نظرة على الصفحات الإلكترونية التي تناقش الكتاب بحماسة نجد أن معظمها لا علاقة له بالتاريخ الفكري.

وهناك مناظرات مشابهة حول "العلوم والإسلام" غالباً ما تنتهي بمحاولات إظهار أن المساهمة الإبداعية للعلماء المسلمين هي "مبالغات شائعة"، وأن الإغريق هم المفكرون الحقيقيون، وأن عبقريتهم قد مرت دون أن تُهضم في العصور الوسطى عبر العالم الإسلامي لتصل إلى مفكري عصر النهضة من غير أية إضافات إبداعية.

يجب إذاً أن نقرأ هذا النقاش التاريخي "كسياسة بالوكالة" وهو نوع قديم من السياسة؛ ولكنها تحاول اليوم أن تجرد المسلمين الأوروبيين من مكانتهم في تكوين أوروبا والفكر الأوروبي الحديث، مهما كانت درجة هذه المساهمة. صحيح أن من الصعب القول بذلك لو أن الحديث يعني فقط المسلمين من المزارعين الذين وفدوا إلى اوروبا من منطقة ميربور في الباكستان والذين استقروا في مدينة برادفورد البريطانية، أو أولئك القادمين من منطقة سيلهيت في بنغلاديش واستقروا في منطقة بريك لين شرق لندن، ولكن الواقع مختلف، فالحديث هنا هو عن المسلمين الذين نطقوا وعملوا باسم الاسلام كشركاء ولو غير أساسيين في المشروع الحضاري الإسلامي.

ولهذا، وكمسلمين، يستطيع القادمون من ميربور أو سيلهيت، وكذلك المغاربة والأناضوليون، أن يرفعوا رؤوسهم عالياً، فهم، على الرغم من كل شيء، الورثة الحقيقيون لأصولٍ غابرة يصفها كلوديو لانغ كالتالي: "في القرن الحادي عشر أسست الحضارة الإسلامية، بالاشتراك مع الحضارات البيزنطية والصينية والهندية، العالمَ المتقدم في ذاك الزمن، بينما كانت أوروبا الغربية تعتبر العالم الثالث".[١٦]

لقد كتب الكثير حول الحاجة لإعادة كتابة تاريخ العالم. ويصف الكاتب جاك غودي هدف كتابه "سرقة التاريخ" بأنه من أجل "إظهار كيف أن أوروبا لم تكتفِ بأن تتجاهل وتهمّش دور تاريخ العالم الآخر، مما أدى إلى خطأ في تفسير تاريخه فحسب، ولكنها فرضت أيضاً مفاهيمها التاريخية وأزمنتها التي أدت إلى إساءة فهمنا لآسيا، بشكل مهمّ للمستقبل كما هو مهمّ للماضي"[١٧]. إنه واحد من عدة باحثين ناقشوا الحاجة إلى الهرب من السرد الانتقائي وغير الكافي للماضي المتمحور حول أوروبا، والحاجة إلى فهم أوضح للروابط الحميمة التي جمعت الثقافات الأوروبية والآسيوية وتاريخهما.

وقد أعاد آخرون (مثل مرغريت ميزيرف Margaret Meserve) النظر في بنية الفكر التاريخي الغربي إلى الأتراك في عصر النهضة[١٨]، وأعاد بعضهم الآخر (مثل إيان ألموند Ian Almond) النظر في الشبكة المعقدة للتحالفات عبر التاريخ الأوروبي، والتي تناقض الأفكار التافهة حول صراع الحضارات، عندما جعلت المسلمين والمسيحيين يقفون في جانب واحد.[١٩] في حين كشف آخرون، مثل جورج صليبا George Saliba بكل دقة وأناة تاريخ ومغزى عملية نقل الأفكار العلمية من الشرق إلى الغرب، والدور الذي لعبه العلماء المسلمون في عملية النقل هذه.[٢٠] وقد كتب آخرون مراجعات تاريخية إيجابية عن الإسلام في أوروبا، ككتاب ديفيد لويس (David Lewis) *God's Crucible*[٢١]. وأرّخ نبيل مطر (Nabil Matar) لتواصل العرب المسلمين مع المسيحيين عبر الحقول الثقافية.[٢٢] أما ريتشارد بولييت (Richard Bulliet) فقد قدم حجّة مقنعة لإعادة النظر في تاريخ حوض البحر المتوسط حتى ١٥٥٠ بوصفه حضارة إسلامية – مسيحية.[٢٣] وهناك كتابات عديدة أخرى في هذا المجال.

ومن المثير للاهتمام هنا كمية الأعمال التي كُتبت بعد عام ٢٠٠١. بالطبع كانت هناك أعمال جادة في هذا المجال قبل هذا التاريخ، ولكن تفجيرات ١١ إيلول/ سبتمبر ونتاجها الفكري أعطت دفعاً كبيراً لمحاولات حثيثة لإيقاف الحضارتين (أو، كما أطلق عليهما بروفيسور بولييت، جزئي الحضارة الواحدة) من الولوج في عداوة متصاعدة يؤججها ما سبق أن أطلقتُ عليه قبل قليل لقب "التوأم الشرير"- الحكايتين الخبيثتين اللتين تلتف إحداهما حول الأخرى كلولب مزدوج. إن كل هذا لا بد أن يكون مبالغاً فيه أحياناً، ولكن هذا هو

الحال مع الحركات المذهبية. فعندما نتجاوز الادعاءات التنافسية وعديمة الجدوى حول أية ثقافة هي التي سبقت في الاكتشاف أو المعرفة أو الاختراع أو الترجمة؛ نستطيع عندها أن ندرك المحاولة الجبارة لعرض ما تمليه علينا الغريزة والمنطق، وهو أنه: لا يمكن لحضارتين عظيمتين تجاورتا لألف عام ونيّف، تبادلتا خلالها التجارة والحروب والشتائم ودراسة إحداهما للأخرى، وكوّنتا ثقافات مصغرة لامعة متوافقة، كإسبانيا المسلمة، وصقلية النورماندية، واحتلتا شواطئء متقابلة على البحر نفسه، أن تكونا منفصلتين كلياً إحداهما عن الأخرى، بل الأحرى أن يكون العكس هو الصحيح: أن التجارة المستمرة، والحوار الفكري عبر الحدود الثقافية، هي عناصر هامة ساهمت في تشكيل الفكر الأوروبي الحديث عبر الشرق الإسلامي..

****

ماذا سنخسر لو استكشفنا هذا التلقيح المتبادل الحميم؟ لماذا يثير هذا الاستكشاف ردود الفعل السلبية هذه؟ لماذا كتب محرر صحيفة (Standpoint)، على سبيل المثال، بكلمات تعكس أهداف الحزب الشعبي الأوروبي (European Peoples Party) وتدعو إلى عودتنا "إلى سياسة تؤكد القيم المتأصلة في الفكر المسيحي- اليهودي الكلاسيكي. نحن نحتاج إلى بلد قومي فخور بهويته وتاريخه، ومستقل وذي سيادة، وحرّ وديموقراطي يعيش في ظل القانون، وقادر على حماية نمط حياته"...؟[٢٤]

وفي نهاية المطاف تتطرق المراجعة التاريخية التي قام بها غودي وبولييت (Goody & Bulliet) لنقطتين حسّاستين جداً. فهي تهزأ بالنَسَب الذي كَتب عنه المفكرون الغربيون لقرون عديدة على أنه حضارتهم الغربية، مقترحَين أن هذه الحضارة الغربية ربما تدين لحضارة طالما عرّفت نفسها بالمقارنة معها. فالحضارة الإسلامية – المسيحية، وإن كانت بشكل أو بآخر صورة بلاغية وُجدت لجذب الاهتمام لهذا التجانس الخفي، تبدو وكأنها تفسد حساً بالماضي كان لزمن طويل أمراً مسلّماً به. وعلى مستوىً أكثر عمقاً فإن الإعتراف التاريخي اليوم بالسلف الثقافي للمسلمين الأوروبيين يبدو وكأنه يمنحهم حصة في أوروبا ومستقبلها، الأمر الذي يرفضه العديد من "الأوروبيين القدامى".

من أجل هذا نشهد اليوم ظهور ما يطلق عليه العالم الأمريكي المختصّ بتاريخ العلوم روبرت بروكتور (Robert Proctor) مصطلح Agnatology أي الإنتاج المتعمَّد للجهل. لقد صاغ بروكتور هذه الكلمة لتصف التكليف بالقيام بأبحاث زائفة حول علاقة التدخين بسرطان الرئة، واختلاق جدل علمي بدهي بعد زمن طويل من اكتشاف العلماء لمسببات سرطان الرئة. لقد مولت هذه الحملة شركات صناعة التبغ بهدف إثارة الشك عند المواطن العادي وتأخير القناعة التي ستأتي فيما بعد عندما تتأكّد أخيراً علاقة التبغ بالسرطان. أمّا حملة تعزيز الجهل التالية فقد كانت ومازالت تحظى بتمويل كبير، وهي محاولة لدحض التوقعات بالتغيير المناخي الكارثي عن طريق الإيحاء بأن البحث في هذا الموضوع ما زال موضع نقاش بين العلماء. وقد قام بالحملتين العديد من الأطباء المزيفين أنفسهم.

والكثير مما يكتب اليوم حول المسلمين في الصحافة الأوروبية وفي المنتديات الإلكترونية والدعابات السياسية هو أيضاً جزءٌ من حملة تضليلية. وعلى الرغم من وجود العديد من المحاولات النزيهة لإغناء المعرفة الأوروبية بالإسلام وتسلسل ثقافاته وتاريخها، ورغم وجود الكثير من النقد الشريف والجوهري، فإنّ هناك في الوقت ذاته الكثير من المحاولات للبلبلة والتعتيم وتشويه الحقائق، وللإيحاء بأن المسلمين الأوروبيين ليسوا بأوروبيين "حقيقيين".

إن التاريخ مرشد رائع للمواقف السياسية والثقافية. وأنا أعمل حالياً على مشروع للمجلس الثقافي البريطاني يستكشف هذا المجال ككل، ويحاول أن يظهر كيف أن المسلمين جزءٌ لا يتجزأ من ماضي وحاضر ومستقبل أوروبا. ويطلق على المشروع اسم " قارتنا الأوروبية المشتركة" وهدفه أن يجلب لذلك الأسلوب الذي نتكلم به عن أوروبا وشعبها، وبشكل خاص عن رفاقنا الأوروبيين المسلمين، واقعية جديدة تتحلى بالمبادىء والقيم، وأن يوضّح أن الأوروبيين المسلمين ليسوا مواطنين من الدرجة الثانية لهم حصة ثانوية في الإرث الأوروبي وأوروبا نفسها، بل لهم حقّ العضوية الكاملة فيها.

والتاريخ يثبت ذلك من خلال البعدين اللذين كنت أناقشهما. فعندما نوسع إدراكنا لمصادر الإنجاز الغربي فنضمِّنها إرثنا من الشرق، أي من الصين والهند والشرق الأوسط، وما نحن مدينون لهم به، نبدأ بدحض التسلسل الهرمي المتعارف عليه ضمنياً للثقافات والأعراق والأجناس والعقيدة التي تتماشى مع كل منها، وهذه أوجه غير لطيفة من إرثنا الإمبريالي. لن نخسر شيئاً لو اعترفنا بـ"حقيقة" أن الثقافات الإسلامية قد أسهمت بشكل كبير في تشكيل أوروبا والفكر الأوروبي، بل إننا سنربح الكثير من خلال إعادة التفكير بعلاقتنا مع العالم.

بذلك نكرّم، وبحقّ، رفاقنا البريطانيين ورفاقنا الأوروبيين الذين طالما هُمِّشوا سياسياً واقتصادياً في مجتمعاتنا من حيث دورهم في الثقافة التي يعيشون فيها الآن ويمتلكونها.

ومن ناحيةٍ أخرى؛ يجب أن نعترف بالواقع الحالي لسيطرة أوروبا الإمبريالية في الماضي على معظم أصقاع العالم. فنسبةٌ قليلةٌ فقط من المسلمين الأوروبيين ينحدرون مباشرةً من الثقافة الرفيعة لإسلام العصور الوسطى، على حين تنحدر غالبيتهم من شعوب الإمبراطوريات الأوروبية، وبهذا يكونون شركاء مباشرين في الحداثة الأوروبية.

وبالرجوع لتاريخنا المشترك، وإعادة التفكير في ما يسميه ضياء الدين ساردار "محو الذاكرة وطمس التاريخ وتحدي العقل والمنطق"، نستطيع أن نساعد في إزاحة التهميش عن العديد من مسلمي أوروبا. وإذا "بنينا تطلعاتنا على حقيقة تشابك الإمبراطورية" نستطيع أن نضع تصوراً جديدا وفعالاً لأوروبا الغد. إن الطريق الأكيد للتغلب على "التوأم الشرير" هو باستكشاف تاريخٍ مشترك؛ يعترف بإسهامات علماء الفلك والشعراء والفلاسفة والمهندسين المعماريين المسلمين، كما يعترف بالمصادر الأخرى للثقافة الأوروبية، ويرى في تاريخ الإمبراطورية تاريخاً يملكه بالتساوي جميع ورثته من كل عرقٍ ودينٍ وأمّة.

Notes

1 Ehsan Masood, *British Muslims: Media Guide* (London: British Council and AMSS UK, 2006).

2 Paul Glennie & Nigel Thrift, *Shaping the Day* (Oxford University Press, 2009), p.66.

3 Letter to *The Spectator* from Michael Irwin, 30th May 2009.

4 *The Gallup Coexist Index*, May 2009.

5 Margaret Macmillan, *The Uses and Abuses of History* (Toronto: Penguin Group, 2008).

6 "Mau Mau veterans sue for colonial abuses," *The Guardian*, 11th May 2009.

7 Ziauddin Sardar, *Balti Britain* (London: Granta Books, 2008), p.209.

8 Kenan Malik, *From Fatwa to Jihad: The Rushdie Affair and its Legacy* (London: Atlantic Books, 2009), p.50.

9 Carl Ernst, *Following Muhammad: Rethinking Islam in the Contemporary World* (University of North Carolina Press, 2003), p.30.

10 Benedict Anderson, *Imagined Communities* (London: Verso Books, 1991), p.54.

11 Lionel Shriver in Dialogue with David Coleman, *Standpoint*, May 2009.

12 Patrick J. Geary, *The Myth of Nations* (Princeton University Press, 2002).

13 Christopher Caldwell, *Reflections on the Revolution in Europe: Immigration and the West* (Doubleday Publishing, 2009).

14 Jessica Marshall, "Future Recall," *New Scientist*, March 24–30, 2007.

15 Sylvain Gouguenheim, *Aristote au mont Saint-Michel: les racines grecques de l'Europe chrétienne* (Paris: Seuil, 2008).

16 *cit.* Jack Goody, *Islam in Europe* (Wiley-Blackwell, 2004), p.65.

17 Jack Goody, *The Theft of History* (Cambridge University Press, 2006), p.8.

18 Margaret Meserve, *Empires of Islam in Renaissance Historical Thought* (Harvard University Press, 2008).

19 Ian Almond, *Two Faiths, One Banner: When Muslims Marched with Christians Across Europe's Battlegrounds* (Harvard University Press, 2009).

20 George Saliba, *Islamic Science and the Making of the European Renaissance* (MIT Press, 2007).

21 David Levering Lewis, *God's Crucible: Islam and the Making of Europe,* 570–1215 (W.W. Norton, 2008).

22 Nabil Matar, (e.g.) *Europe through Arab Eyes,* 1578–1727 (Columbia University Press, 2008); or *In the Land of the Christians: Arabic Travel Writing in the Seventeenth Century* (Routledge, 2003).

23 Richard W. Bulliet, *The Case for Islamo-Christian Civilization* (Columbia University Press, 2006).

24 Daniel Johnson, *Standpoint*, May 2009.